

أبحاث المستشرق الفرنسي ريني باسي حول تاريخ الجزائر خلال الفترة القديمة. (تاريخ الأمازيغ أنموذجا).

بوجمعة فريدة¹

¹ جامعة الجزائر 2 ابو القاسم سعد الله، boudjifari@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/07/28 تاريخ القبول: 2023/09/10 تاريخ النشر: 2023/09/14

الملخص:

ركز العديد من المستشرقين الفرنسيين اهتمامهم على تاريخ وماضي الجزائر، رغبت منهم في إحكام السيطرة وطمس هوية الجزائريين، وإلحاقهم بفرنسا. وكان ريني باسي من بين هؤلاء المستشرقين المختصين، الذين جندوا لمهمة دراسة تاريخ الشعب الجزائري منذ مقابل التاريخ مروراً بالفترة القديمة وما تلاها وصولاً إلى فترة استعمارهم للجزائر بل وحتى بعد الاستقلال. وقد ركز ريني باسي من جهته وبشكل ملفت على دراسة تاريخ الأمازيغ الذي استهواه بشكل ملفت، سواء ما تعلق بلغتهم، ولهجاتهم، أو دينهم، وذلك منذ أن وطأ قدماء الجزائر، خاصة مع توليه كرسي كلية الآداب بالجزائر، وكذلك العون الذي قدمه له تلاميذه وكذلك زملائه خاصة العرب منهم وكذلك من كان يتقن بينهم اللغة الأمازيغية، لذا استمر انتاجه العلمي في مجال الاستشراق قرابة الأربعين سنة. مسدياً بتلك الدراسات خدمة جليلة للمستعمر الفرنسي الذي لعب على أوتار الهوية، لتكريس سياسة التفرقة بين الشعب الجزائري.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، الجزائر، الأمازيغ، ريني باسي، الاحتلال الفرنسي، الفترة القديمة.

Abstract: Many French orientalists focused their attention on the history and past of Algeria, wishing them to tighten control and obliterate the identity of the Algerians, and to annex them to

بوجمعة فريدة

France. René Basset was among those specialized orientalists, who were recruited for the task of studying the history of the Algerian people from the opposite of history, through the ancient period and what followed, up to the period of their colonization of Algeria and even after independence. René Basset, for his part, focused remarkably on studying the history of the Berbers, which attracted him remarkably, whether it was related to their language, dialects, or religion, since he set foot in Algeria, especially with his assumption of the chair of the Faculty of Arts in Algeria, as well as the help that his students and colleagues gave him. Especially the Arabs among them, as well as those who were proficient among them in the Tamazight language, so his scientific production in the field of Orientalism continued for nearly forty years. He rendered these studies a great service to the French colonialists, who played on the strings of identity, to perpetuate the policy of segregation among the Algerian people.

مقدمة:

إن كل من يريد الاطلاع على ماضي وحاضر الشعوب لا بد له من البحث والغوص في ماضيه، ولا مفر من العودة إليه لمعرفة الحاضر والمستقبل، فالتاريخ هو ذاكرة الشعوب. لذا اهتم العديد من المستشرقين الفرنسيين بتاريخ الجزائر وماضيها، وسعوا جاهدين بربط الجزائر بفرنسا من خلال البحث في أصولها التاريخية، مساهمين بذلك في العمل، والمحاولة على ترسيخ ثقافتهم الفرنسية، وطمس قدر الإمكان ثقافة وهوية الجزائريين، لذا كان تركيز المدرسة الإستشراقية الفرنسية في الجزائر منذ بدايتها خاص بدراسة تاريخها وأثارها، وسخرت لهذه المهمة العديد من الامكانيات خاصة البشرية منها، والمتمثلة في الباحثين والمختصين في هذا المجال، ومن بين هؤلاء المستشرقين الذين جندتهم فرنسا في مهمتها العلمية نذكر منهم المستشرق العالمي ريني باسي (René Basset) فمن هو هذا المستشرق، وماهي المواضيع التي شملت دراساته الخاصة بتاريخ الجزائر

أبحاث المستشرق الفرنسي ريني باسي حول تاريخ الجزائر خلال الفترة القديمة.
(تاريخ الأمازيغ أنموذجا).

خلال الفترة القديمة ، وفيما تتمثل الدوافع والأهداف التي كان يرمي إليها من خلال أبحاثه ؟ .

1. مفهوم الاستشراق

الاستشراق مدرسة فكرية ذات خصائص ودوافع وغايات، وليس من اليسير على أي باحث أن يحيط بأسراره، وأن يستكشف كل خطواته وأن يلم بأهدافه، فهي وليدة صراع طويل بين الحضارتين الإسلامية والمسيحية وهي نتاج تجربة حية من تناقض وتباين بين عقيدتين وثقافتين وحضارتين (محمد فاروق النيهان، 2012 م، ص 11). والاستشراق عبارة مركبة من الشرق إضافة إلى الحروف الزائدة، وهي الهمزة والسين، والتاء، والتي تعني في قواعد اللغة العربية طلب الشيء، والاستشراق لفظ استعمله المحدثون في ترجمة كلمة (Orientalisme) ثم صاغوا الفعل المزيد اسم وحددوه بالاستشراق في اللغة الأجنبية مرادفا في الفعل العربي (محمد قدور تاج، 2014 م، ص 16). وكلمة الاستشراق كلمة اصطلاحية لا يراد بها مدلولها اللغوي من حيث التوجه نحو الشرق، بل يعني طلب علوم الشرق واتجاه للتخصص في معرفتها، والمستشرق هو المتخصص في علوم الشرق وحضارته، وأثاره وفنونه، وأطلقت كلمة مستشرق لأول مرة سنة 1630 م، على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية، ثم أطلقت بعد ذلك على من عرف لغات الشرق ومن تبحر في لغات الشرق وآدابه، وكانت تطلق في البداية على من تخصص في فقه اللغات الشرقية (محمد فاروق النيهان، ص 11).

2. بداية اهتمام المستشرقين الفرنسيين بتاريخ الجزائر القديم.

كانت الجزائر شبه مغلقة في وجه الرحالة السواح الأوروبيين قبل الاحتلال الفرنسي بسبب حالة العداء والتوترات التي ميزت العلاقات بين الطرفين ومعظم الدول المسيحية، ولم يتسنى سوى لبعض من الأوروبيين زيارة بعض المناطق

بوجمعة فريدة

الجزائرية أمثال القنصل الانجليز توماس شاو (Shaw Thomas) (1694-1751). الذي ألف كتاب سنة 1738م بعنوان رحلة في ايلة الجزائر (Shaw Thomas, 1830). ومواطنه طوماس داركو (Thomas d'Arcos)، الذي عثر سنة 1631م على نقش مزدوج (يونقي- لبيي) قام بإرسال نسخة منه إلى مواطنه بيرس (Pierse) الذي حاول فك رموز هذا النقش الذي يحمل رموز الكتابة الليبية، إلا أنه فشل في ذلك. (Chabot (J-B), 1941).

ومع بداية الحملة الفرنسية عملت الإدارة الفرنسية على الحث والتشجيع للتوجه إلى الجزائر للعمل من أجل الاستفادة مما حققه الجيش الفرنسي على الجزائر، وعمدت الى تعبأة القيادة العسكرية المكلفة بالاحتلال من علماء ومهندسين ومؤرخين، بقصد استحصال التجارب التي تحققت بين روما والأهالي، لذا قام الفرنسيون في بداية الاحتلال بالبحث وتدوين كل ما يصادف الجيش في تنقلاته من المعالم والمواقع الاثرية واشياء فنية وشكلت لجنة الى جانب الضباط بعض من المدنيين كلفوا بشؤون المكتبة والاثار، وكتابة التقارير خاصة حول الاثار الرومانية، والكتابات اللاتينية حتى اخذت وجهتها نحو أكاديمية الفنون والنقوش بباريس (شنيقي محمد البشير، 2013م، ص ص 44-47).

3. دوافع المستشرقين الفرنسيين من دراسة تاريخ الجزائر خلال الفترة القديمة.

عادة ما تبدأ دوافع الاستشراق الأول كمحاولة لاستكشاف الآخر، وهو تطلع طبيعي وفطري وكل شيء يبحث عن الآخر، وكل ضفة يدفعها الفضول لمعرفة الضفة المقابلة لها لأنها الآخر في جميع الظروف، وهو الخصم والنقيض (محمد فاروق النهمان، المرجع السابق، ص 12). ومن الواضح أن الاستشراق الفرنسي كان مرتبطا منذ بداية الاحتلال بالإدارة الفرنسية ارتباطا سياسيا، وقد ازدادت هذه الرابطة وثوقا وبلورة منذ 1879م الى 1930م وأن بعض المستشرقين في

أبحاث المستشرق الفرنسي ريني باسي حول تاريخ الجزائر خلال الفترة القديمة.

(تاريخ الأمازيغ أنموذجا).

فرنسا نفسها لهم نظرة واسعة للمجتمعات الإسلامية. (أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 1-14). وتبلورت المرامي العسكرية من الأبحاث عن المعالم والمواقع الأثرية الرومانية من خلال ما ورد في النصوص المؤسسة لتلك اللجنة الخاصة بالضباط الفرنسيين، والتي قامت بوصف الطرق العسكرية القديمة حيثما وجدت اثارها ومتابعة تلك الطرق بكل تفاصيلها ووضع خرائط لها، وتحديد المسافات بين جميع المواقع لما له من اهداف عسكرية، ولإحكام السيطرة على البلاد اقتداء بالرومان. واقتضت ضخامة المهمة وخصوصية تنفيذها توسيع عضوية الجمعية لتضم مختصين في الطبوغرافيا وعلم الخرائط امثال كاريت (Carette.E) من أجل ربط التاريخ بالجغرافيا وألف كتاب ضمنه معلومات مفصلة حول الطرق والمعالم الأثرية اعتمادا على النصوص التاريخية والمعلومات الجغرافية القديمة، وكذا المعارف العربية حول الطرق والمسالك في المغرب الأوسط حتى العهد العثماني. وكل ذلك كان لحاجة الجيش الفرنسي للخرائط من أجل تشخيص الواقع الجغرافي على الورق فترسم المسارات الامنة لجيش الاحتلال وتحديد المواقع الحصينة على الأرض. لذا احتاجت كذلك إلى مختصين في الجغرافيا العملية للذين يجيدون قراءة الشواهد الأثرية ذات الصلة بالطرق لتوظيفها في وضع خرائط حديثة (شنيقي محمد البشير، 2013، ص 47-48).

4. أهداف المستشرقين الفرنسيين من دراسة اثار وتاريخ الجزائر الخاصة بالفترة القديمة.

بالرغم من تشجيع الإدارة الفرنسية للأبحاث والدراسات حول التاريخ والأثار الموجودة بالجزائر إلا أنها لم تعير اهتماما لحفظ ارضها وتاريخها ومعالمها الأثرية أو حمايتها بل كان القصد من ذلك بكشف الكنوز ورصد موارد الجزائر وأثارها وتوظيف التاريخ في تقوية معنويات جنودها (شنيقي محمد البشير، 2013،

بوجمعة فريدة

ص17)، وكذلك لزوع فكرة ان ما تعلق بالفترة القديمة للجزائر هو خاص بالأوروبيين أي الفرنسيين وانهم هم أولى بها لأنها تخص إرثهم اللاتيني الذي تركه أسلافهم الرومان وأنهم جاؤوا لاستعادته. لذا سارعت السلطات الفرنسية بالسطو على العديد من المواقع الاثرية الجزائرية من طرف مؤسساتها العسكرية فمنها من جعلت منها حصونا ومقرات لإقامة جيوشها كما هو الشأن في قلعة وتبسة وغيرها (شنيقي محمد البشير، 2013، ص48).

كما شيد الفرنسيون أول سجن كبير في موقع المعسكر الروماني لامبيز تازولت عام 1848م وقد برروا ذلك بوفرة الحجارة الصالحة للبناء وقد حذا المعمرون حذو المؤسسات العسكرية فسارعوا إلى بناء مزارعهم بالحجارة الاثرية متخذين من أطلال الموقع محاجر حقيقية يقتلعون منها ما يرونه مناسباً لبناء وتزيين مساكنهم وتحصينها أما المستعمرات التي أنشأها سلطة الاحتلال واختارت لها مواقع مدن قديمة مثل سطيف وقلعة وتبسة فقد أتت أعمال البناء فيها على ما كان باديا من أثار تلك المواقع ولم يسلم من ذلك سوى ما كان خفيا في باطن الأرض أما الأثار الثمينة ومن تحف وتماثيل ومشخصات فنية فقد امتدت اليها الأيادي من كل جانب باعتبارها غنيمة حرب ووصل الكثير منها إلى فرنسا بأمر من سلطات الاحتلال ومنها ما أرسل الى متحف اللوفر بباريس كالمشغولات والعناصر الزخرفية الجميلة من سكيكدة وقسنطينة وعنابة بما في ذلك فسيفساء أمفيتريت ونيبتون المكتشفة بقسنطينة عقب احتلالها حيث اقتلعت من مكانها وأرسلت إلى فرنسا عام 1842م على يد دولامار حتى أن روني حاول القيام بعمل مماثل بالنسبة لفسيفساء الفصول الأربعة المكتشفة في لامبيز لكنه لم يوفق. وفي سنة 1839م قام الدوق دومال بزيارة إلى موقع جميلة وأمر بإعداد قوس النصر وتوضيب قطعه لإرساله إلى فرنسا كي يعاد بناؤه هنالك تمجيذا للجيش الفرنسي المنتصر في الجزائر، وكلف المهندس دولامار بتلك المهمة لكن ذلك لم يتم بسبب

أبحاث المستشرق الفرنسي ريني باسي حول تاريخ الجزائر خلال الفترة القديمة.
(تاريخ الأمازيغ أنموذجا).

عدم استعداد سلطة الاحتلال في مدينة الجزائر لتنفيذ مهمة من هذا النوع فاكثفت بإعادة بناء القوس في مكانه (شنيقي محمد البشير، 2013، ص50).

ولم يقتصر تعدي المستشرقين الفرنسيين على الإرث المادي الخاص بتاريخ الجزائر فقط وإنما تعداه إلى الإرث المعنوي فمثلما اهتم الفرنسيون بمجال التاريخ والأثار في الجزائر كذلك اهتموا بإثنوغرافيتها وهذا من أجل التعرف على فئة السكان التي تقطن بها، وأنظمتها الاجتماعية والتي إتبعته نفس السياسة الخاصة بدراسة تاريخها، إذ جندت لهذا المجال أيضا عشرات من ضباط الشؤون الأهلية، والرحالة والمبشرين الذين اختصوا في دراسة عادات وتقاليد، وأنماط المعيشة عند السكان، أو بمعنى آخر كل ما تعلق بنظمهم الاجتماعية والاقتصادية، ولغاتهم ولهجاتهم بمختلف مناطقهم. وقد كرس هؤلاء دراستهم دعما لسياسة التفرقة بين سكانها. من أجل إضفاء وتكريس شرعية الاحتلال الفرنسي للجزائر (بقطاش خديجة، ص137-138).

5. أبحاث المستشرق الفرنسي ريني باسي في دراسة التاريخ الجزائري.

سبق وأن أشرنا إلى أن السلطات الفرنسية عبأت العديد من العلماء والباحثين في حملتها ضد الجزائر مستخدمة بذلك أشهر الاثريين والمؤرخين لخدمة سياسة الاحتلال كونهم يعتبرون أنفسهم في وقت ما ورثة الحضارة الرومانية اللاتينية في بلاد المغرب، وشجعتهم على دراسة تاريخ تلك الفترة وكان من بينهم هؤلاء الذين جندتهم لتحقيق اغراضها وتوسعاتها نذكر على الخصوص إميل مسكراي (Emile Masqueray) (1843-1894)، مستشرق ومؤرخ وعالم اجتماع فرنسي، من مؤلفاته ترجمة كتاب بني مزاب في جزائر المغرب (الجزائر 1878)، و التقاليد الشعبية (الجزائر 1879)، وكيف تألفت البلدان عند قبائل البربر في بلاد الاطلس. (باريس 1886)، وعدة دراسات عن لهجات البربر والتوارق

بوجمعة فريدة

(نجيب العقيقي، 1964م، ص202). وشغل مديرا لمدرسة الآداب العليا في الجزائر، والذي تحول الى المعهد العالي للآداب عام 1880م والذي يعتبر الخطوة الأولى لظهور باحثين أكاديميين في ميدان الآثار والدراسات التاريخية الحديثة. وجاء بعدها الأستاذ المتخصص في الآثار الإغريقية الرومانية ستفان قزال (Stéphane Gsell) الذي كان من بين اهم المستشرقين الذين كتبوا حول تاريخ الجزائر في الفترة القديمة، اذ تم تعيينه سنة 1890م مكلف بالدروس في تاريخ وأثاره منطقة شمال افريقيا في مدرسة الآداب بالجزائر، ليصبح أستاذا مرسما بكرسي الآثار القديمة لشمال افريقيا عام 1894م ، وعين مفتشا للآثار في الجزائر سنة 1900م ، ثم مديرا لمتحف الآثار القديمة الجزائرية والفن الإسلامي. عين أستاذا في الكلية الفرنسية وأنشأ له كرسي خاص بتاريخ شمال افريقيا. وفي سنة 1919م عين مفتشا عاما للمتاحف الأثرية والعلمية بالجزائر، Albertini (E), 1932, pp.20-53). والى جانب هؤلاء ومجموعة أخرى من الباحثين المختصين الذين جندتهم فرنسا لدراسة الحالة الاجتماعية للجزائريين، ليسهلوا عليها عملية اخضاع الجزائريين، نذكر المستشرق الفرنسي الذي ذاع صيته بين المستشرقين العالمين ألا وهو ريني باسي (René Basset). فمن هو هذا المستشرق وماهي الأعمال البحثية التي قام بها والمتعلقة بتاريخ الجزائر؟

1.5. التعريف بريني باسي (1855-1924) .

ولد ريني باسي سنة 1855م في مدينة لونيفيل (Lunéville) الفرنسية حيث تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي، وهو من أعضاء المجمع العلمي العربي، و لما أجاز بالآداب من جامعة نانسي 1878م، قصد باريس وتخرج من مدرسة اللغات الشرقية ثم من معهد فرنسا. عين عضوا في كثير من المجمع العلمية، في باريس ولشبونة ومديرد وروما ودمشق (يحي مراد أبو عمر، 2005م، ص204).

أبحاث المستشرق الفرنسي ريني باسي حول تاريخ الجزائر خلال الفترة القديمة.
(تاريخ الأمازيغ أنموذجا).

حل باسي بالجزائر سنة 1881م وعهد إليه بتدريس الادب العربي القديم، وتوطدت علاقته مع هيوداس (Judas.A) الذي كان أول من تولى كرسي اللغة العربية في الجزائر، وتوحدت على إثرها نظريتهما في خدمة الإدارة الفرنسية والاستشراق، وبعد مغادرة الأخير للجزائر سنة 1882م، تولى ريني باسي مكانه في الجزائر وارتبطت علاقات قوية بينه وبين ابن سديرة الذي كان لولا الميز الاستعماري أولى بالكرسي منه، والذي جعل منه ومن زميله عمر (سعيد) بوليفة أداتين لإنجاز مشروعه الإستشراقي العريض الذي دام حوالي أربعين سنة. وفي سنة 1885م أصبح من الأساتذة المرسمين ثم تولى منذ 1894م إدارة المدرسة العليا في الجزائر إثر وفاة إميل مسكراي. وبعد تحويل المدرسة الى كلية سنة 1909م أصبح ريني باسي عميدا لها إلى وفاته، فاذا ذكرت مدرسة الآداب او كلية الآداب خلال هذا العهد الطويل فكأنما ذكر اسم ريني باسي (أبو القاسم سعد الله، 1998م، ص ص 27-29).

درس باسي بعد وصوله الجزائر في مدرسة الجزائر العربية والحبشية والتركية والفارسية والامازيغية، ووجد من وقته متسعا للطواف في أقاليم تونس سنة 1888م منقبا عن الآثار الإسلامية والمخطوطات العربية، متعمقا في المعتقدات والأخلاق والعادات تعمقا حمله على مقارنة الحكايات الشعبية بمثلها من الحكايات العالمية اللغات، وكان من كان ريني باسي في طليعة محرري المجلة الإفريقية، ونشرة المرسلات الإفريقية ونشرة الآثار الأفريقية، والمجلة الآسيوية، ورغم غزارة إنتاجه الفكري إلا أنه أثر التدريس على الكتابة. ولما تحولت مدرسة الجزائر إلى كلية 1909م انتخب عميدا لها، وقصد السنغال 1910م، وقد انتخب رئيسا من مديري دائرة المعارف الإسلامية (نجيب العقيلي، ص 216). والتي كان يولمها المستشرقين والإدارة الاستعمارية الفرنسية على حد سواء قدر

بوجمعة فريدة

كبير من الأهمية لذا أنشئ لها كرسي في كلية الآداب بالجزائر (أبو القاسم سعد الله، 53، 56).

2.5. أبحاث ريني باسي في اللغة واللهجات الأمازيغية.

تنوعت أعماله باللغتين العربية والأمازيغية، واختلفت المواضيع التي تطرق إليها خلال مسيرته العلمية. حيث بلغت مجموع أعماله في (الميلانج) الذي يحمل اسمه حوالي أربعين صفحة بين كتاب وبحث ومقال ومراجعة، وقد صنفنا إلى أبواب لأنها وإن كانت كلها في مجال الاستشراق (أبو سعد الله، ص 30). ولم ينقطع باسي عما تعودده من نشر بحوثه في المجلة الاسيوية قبل مغادرة باريس 1879م، بل أسهم في مجلات علمية كثيرة. وله بالفرنسية مقالات في المجلات الإستشراقية، بفرنسا والجزائر، وفصول دائرة المعارف الإسلامية (خير الدين الزركلي، ج 3، 2002م، ص 39). دون أن ننسى علمه في الأدب الإسلامي، والتاريخ الذي تواصل على مدار نصف قرن تقريبا (LÉVI-PROVENÇA.E, 1924,p5). أسهم باسي كثيرا في التحقيق ودراسة تاريخ الأمازيغ أو البربر (كما ورد في أبحاثه) خاصة ما تعلق بلغتهم، ودينهم. ونتيجة لسعة أعماله الإستشراقية حضي لسنوات عديدة بشهرة كبيرة في العالم الإستشراقي.

وبخصوص الاعمال التي قام بها حول تاريخ ولغة الأمازيغ الذي كان يوليه المستشرقين والإدارة الاستعمارية الفرنسية على حد سواء قدر كبير من الأهمية فأنشؤا لها كرسي في كلية الآداب بالجزائر (أبو القاسم سعد الله، ص 53، 56). انصب اهتمام باسي بشكل خاص على اللهجات المنتشرة في الجزائر وشمال إفريقيا ككل والتي كانت مشتقة من اللغة الليبية التي كانت اللغة المشتركة لأسلافنا في كامل المنطقة الممتدة من سيوة بمصر شرقا إلى جزر الكناري غربا، ومن ضفاف البحر المتوسط شمالا إلى أطراف مالي والنيجر جنوبا والمعروفة بالأمازيغية. كما أن كل المعطيات التاريخية، الواقعية وأسماء الأعلام ومفردات

أبحاث المستشرق الفرنسي ريني باسي حول تاريخ الجزائر خلال الفترة القديمة.
(تاريخ الأمازيغ أنموذجا).

اللغة وكذا النقوش وشهادات الكتاب القدامى تؤكد انحدار اللهجات الأمازيغية من الليبية كما اشتقت الكتابة التيفناغية من الكتابة الليبية القديمة وأنها ظلت قائمة في الفترة الرومانية والوندالية والبيزنطية حيث عثر على العديد من النصب الليبية أو الليبية المزروجة الليبية البونيقية الجديدة أو الليبية اللاتينية (محمد الهادي حارش، 2013م ص 17-29).

وما يجدر بنا ذكره انه قبل مجيء ريني باسي إلى الجزائر أن كل ما تعلق باللهجات الأمازيغية تقريباً كان غير مستكشف، وما تم العثور عليه حول هذه الدراسات لم يكن سوى مجموعة من قوائم صغيرة تتكون فقط من المفردات المعروفة التي تم جمعت من قبل غير المتخصصين، كالمسافرين أو القناصل خلال فترات إقامتهم القصيرة، ودون إرفاقها بأدنى خطة منطقية في دراستها. وكانت من بين تلك الدراسات ما قام به الجنرال هانوتو (Hanoteau) الذي ألف كتاب قواعد القبائل والتمشاق grammaires kabyle et tamasaq، ومجموعة الشعر القبائلي recueil de poésies kabyles. في وقت مبكر من عام 1879.

ومع تزامن بداية أبحاث باسي مع الأعمال التي ألفها كل من هونتو ومسكراى حتى وإن كانت في مجملها مقتضبة إلا أنه قدرها كثير، بل قام كذلك بتكملة كتابهما حول دراسة التمشاق بعد وفاتهما رفقة زميله قودفريو دومومبين (Demombynes M. Gaudefroy). ورغم أنه بالكاد تخرج من مدرسة اللغات الشرقية الحية، إلا أنه قام بافتتاح سلسلة من الاعمال في النشر حول الامازيغ في باريس، في المجلة الآسيوية، شملت نص بالغة الأمازيغية الشلحية، وترجمة فرنسية لقصيدة شعبية، وبعد تعيينه رئيساً للمدرسة العليا كُلف بالمقرر التكميلي للأدب العربي. لتنطلق بعدها أبحاثه في الدراسات حول اللغة واللهجات الأمازيغية (Lévi-Provença.E, p2-3).

بوجمعة فريدة

وفي السنوات العشر الأولى لإقامته في الجزائر العاصمة ضاعف باسي أبحاثه وتحقيقاته في جميع المجالات الخاصة بالأمازيغية قبل قيامه بالتأليف، ولرسم جدول مقارنة للصوتيات ومورفولوجيا اللهجات المختلفة، كان عليه أولاً جمع وتقديم وثائق لغوية كثيرة. لذا قام بالعديد من البعثات سمحت له بجمع العديد من المعلومات من كل أنحاء الجزائر، وكذلك من تونس، وطنجة، والسنغال. حتى أنه لم يكتفي بنقل أوصاف اللهجات المحلية الخاصة بكل منطقة فقط، بل قام أيضًا بذكر المواد التي تم جمعها من أفواه المخبرين القادمين من مناطق بعيدة، والتي شملت خاصة المناطق الناطقة باللغة الأمازيغية، والمنتشرة على امتداد مساحات شاسعة من الجزائر والساحل الوهراني والجنوب الوهراني (Lévi-Provença, E, pp1-3). إضافة إلى قيامه باستكشاف بعض المكتبات الجزائرية خاصة في منطقة الصحراء، ففي شهر مارس 1885م كُلف من طرف الحاكم العام للجزائر بدراسة اللهجات الأمازيغية، في واد مزاب ووادي ريغ، وفي ورقلة (عبد الحميد أعراب، 2004م، ص 70). كل هذا سمح له بجمع العديد من المعلومات المهمة جدًا حول تاريخ لغة الأمازيغ. فحسب قول أحد تلاميذه فقد نشر أكثر من 25 عملاً حول الدراسات الأمازيغية (أبو القاسم سعد الله، ص 30). وهي على النحو التالي:

- قصيدة شعبية. Poème de Çabi (Paris, 1879)

- ملاحظات معجمية بربرية. Notes de lexicographie berbère (Paris, 1883-1888).

- حكايات شعبية بربرية. Contes populaires berbères (Paris, 1887)

- دليل لغة القبائل. Manuel de langue kabyle (Paris, 1887).

- مجموعة من النصوص والوثائق المتعلقة بفقهاء اللغة البربرية. Recueil de textes et de documents relatifs à la philologie berbère (Paris, 1887).

أبحاث المستشرق الفرنسي ريني باسي حول تاريخ الجزائر خلال الفترة القديمة.
(تاريخ الأمازيغ أنموذجا).

- لهجة سيوة. (Paris, 1890) Le dialecte de Syouah
- لقمان البربر. (Paris, 1890) Loqman berbère
- دراسة حول الزناتية المزاب، ورقلة و ارو. رير. Etude sur la Zénatia du Rir (Paris, 1893). Mzab, de Ouargla et del'Or.
- دراسة حول اللهجات البربرية Études sur les dialectes berbères (Paris, 1894).
- اللهجة البربرية لتارودانت (Florence, 1895) Le dialecte berbère de Taraudant
- أسماء المعادن والألوان باللغة البربرية. Les noms de métaux et de couleurs en berbère (Paris, 1895).
- حكايات بربرية شعبية جديدة Nouveaux conte!! populaires berbères (Paris, 1897).
- ملاحظة حول اللهجة البربرية لبني ازناسن. Notice sur le dialecte berbère de Beni Iznacen (Florence, 1898).
- الأسماء البربرية للنباتات عند ابن بيطار. Les noms berbères des plante~ dans Ibn Beïtar (Florence, 1899).
- اسم الجمل عند البربر. Le nom du chameau chez les Berbères (Paris, 1906)
- نشر قواعد النحو وقاموس التوارق الخاص بمتولينسكي. Publication de dictionnaire Touaregs de M. de Motylinski la grammaire et (Alger, 1908).
- علماء الأنساب البربر (Lévi-Provença.E,p6-7).Les généalogistes berbères (Rabat1915).
- كما قدم بحثين في مناسبتين مختلفتين عنوانه تقرير عن دراسات البربر والهوسة.
(Rapport sur les études berbères et haoussa1897-1902))
لمؤتمر المستشرقين. الأول في هامبورغ (المانيا) سنة 1902م، وهو منشور في

بوجمعة فريدة

باريس سنة 1902م والبحث الثاني قدمه لمؤتمر كوبنهاغن الذي انعقد سنة 1908م، وكان العنوان نفسه كالأول عدا التاريخ فهو من 1902م الى 1908م، وهما بحثان طويلان شملا أغلبها الدراسات الأمازيغية التي تمت في مدرسة الآداب بالجزائر وفي غيرها من المدارس الجزائرية على يد المستشرقين الفرنسيين (أبو القاسم سعد الله، ص53-54).

3.5. أبحاث ريني بسي حول ديانة الأمازيغ.

إن أهم أعمال باسي حول دين الأمازيغ جاء بعنوان: أبحاث حول ديانة البربر. (Recherches sur la religion des Berbères (1909) تتطرق فيه للحديث عن دين الأمازيغ قبل الإسلام في مجلة تاريخ الأديان. أشار فيه إلى التوزيع الجغرافي للأمازيغ والذي يشمل كل شمال إفريقيا، ويمتد في المتوسط إلى السودان، ومن المحيط الأطلسي إلى مصر وأنهم يشكلون وحدة لسانية سمحت بتوحيدهم، عكس الدين الذي لم يقع عليه نفس الأمر خاصة ما تعلق بديانتهم الوثنية، وذكر أن الأبحاث السابقة في هذا المجال لم تقدم لنا معلومات كافية حول الموضوع، كالنقوش الإبيغرافية التي كانت في نظره جد مقتضبة، كما انها لا تميز بين ما هو أصلي وما هو مأخوذ من الشعوب الأجنبية (HALÉVY. J, 1911, p122).

حسب رأي باسي فان الأمازيغ قدسوا العديد من المظاهر الطبيعية كالجبال، والأنهار، والكهوف، والمغارات، والصخور. فإما أن يكونوا قد عبدوها كآلهة أو على الأقل كمأوى لمخلوق إلهي. واستعان في ذلك بما ذكره هيرودوت حول دينهم حين قال أن الليبيين قدسوا جبل الاطلس (عمود السماء) واعتبروه إلهًا. كذلك عبدوا الأجرام السماوية، خاصة الشمس والقمر، اللذان انتشرت عبادتهما في الأراضي الواقعة بين نهر تريتون ومصر. كما أشار إلي وجود عبادة الإله فينوس عندهم، إضافة إلى الإله غورزيل (Gourzil)، الممثل بصورة ثور محمول للحرب،

أبحاث المستشرق الفرنسي ريني باسي حول تاريخ الجزائر خلال الفترة القديمة.
(تاريخ الأمازيغ أنموذجا).

واعتبر كأبولو. وأن عبادته استمر إلى غاية القرن 11م. وذكر أن العديد من أساطير الأمازيغ متعلقة بالأجرام. وذكر أن قوس قزح ارتبط عندهم بالخرافة، وكان يطلق عليه اسم حزام أو عروس المطر أو عروس السماء، وأنهم عند الجفاف يقومون بعبادات استدرار المطر (أنزار) (Réne) Basset, 1910).

وأشار إلى أن الأمازيغ تأثروا بديانات أخرى كالديانة القرطاجية والمتمثلة في عبادتهم للإله بعل يدر (Baladdir) والإله يولوس (Iolaos) اللذين استقدا من قرطاج أو من جزيرة سردينيا. كما أشار إلى عبادتهم لملوكهم، وأن تاريخهم يحتوي على حكايات لا حصر لها حول الشياطين والعفاريت، وأنهم عرفوا السحر منذ القدم خاصة عند النساء. وفي الأخير نوه بتأثير دخول العديد من العناصر الأجنبية على ديانة الأمازيغ في اعتناق العديد منهم لليهودية، والمسيحية التي انتشرت عندهم خلال الفترة الرومانية، والبيزنطية، إلى غاية مجيء الديانة الإسلامية فيما بعد (HALÉVY. J, p12-124).

ومن ضمن مؤلفاته أيضا نذكر:

- دراسة عن اللهجات البربرية في الريف المغربي. Étude sur les dialectes berbères du Rif marocain (Paris, 1898).

- إنتفاضة الجزائر عام 1871 في منطقة القبائل الشعبية. L'insurrection algérienne de 1871 (Lévi-Provença.E, p6-7) dans les chausollil populaires kabyles (Paris, 1892).

والجدير بالذكر أن ريني باسي اعتمد كثيرا على تعاون تلاميذه في الجهود الضخمة التي بذلوها والمنشورات العديدة التي نشرها حول الدراسات البربرية والهوية. وتخرج على يده مستشرقون أمثال بيل وديستان وديبارمي. كما أن ابنه (هنري باسي) الذي ورث عنه سيرته وتلمذ عليه في الاستشراق والبربرية. واستفاد كثيرا من خبرة علماء جزائريين أمثال: بلقاسم بن سديرة المتمكن من الامازيغية

بوجمعة فريدة

والذي قام بوضع قاموس لتعليم اللغة الأمازيغية، والهاشمي بن الوئيس الذي وظف اللهجات الأمازيغية. إضافة إلى عمر(سعيد) بوليفة الذي كان المعاون الرئيسي لباسي في اللهجات الأمازيغية خاصة القبائلية. والذي ظهر اسمه في عالم النشر سنة 1904م حين أصدر مجموعة شعرية قبائلية. وابن أبي شنب العارف لعدة لغات والذي كان العضد الأيمن ومساعد لباسي. (أبو القاسم سعد الله، ص 30-31، 54).

ونظرا لأهمية اللهجات البربرية بالنسبة للمستشرقين والإدارة الاستعمارية الفرنسية على حد سواء تم تتويجه بجائزة بوردن باريس 1883م من طرف مجمع الكتابات والآداب عن بحثه دارسات في اللهجات البربرية وهي عبارة عن مقارنة منهجية بين علم الصوتيات والتشكيل للهجات أمازيغية مختلفة، مع محاولة لتحليل آلية اللغة البربرية. حيث أصبح منذ ذلك الحين أساس الدراسات البربرية. وهذا ما زاد من سمعته العلمية وأصبح استاذا متخصصا في اللغة البربرية، واخذ على عاتقه مهمة توسيع الابحاث والدراسات في اللهجات الأمازيغية. بعدما كان ولمدة طويلة الوحيد الذي يقوم بتدريسها في مدرسة اللغات الشرقية، وفي معهد الدراسات العليا كذلك. ولكونه المتخصص الوحيد في الموضوع، لم يتأخر مع مجموعة مكونة من اصدقائه وطلابه في تشكيل مركز الدراسات البربرية التي شهدت العديد من الاعمال سواء أثار او تحقيقات شملت العديد من الامور الخاصة بالبربر، وكل هذه الاعمال جعلها متاحة للجميع في كلية الادب بالجزائر. وأصبح في حوزته ببليوغرافيا حول الامازيغ كما اخذ على عاتقه مهمة اتمام ونشر اعمال كل من مسكرای Masqueray، وموتيلنسكي Motylinski والد فوكو Foucauld. بعد وفاتهما(Lévi-Provença.E, p4). وصنفت لتكريمه منوعات باسمه في جزئين 1925م. نظيرا عمله الدؤوب. (يحي مراد، المرجع السابق، ص.205).

أبحاث المستشرق الفرنسي ريني باسي حول تاريخ الجزائر خلال الفترة القديمة.
(تاريخ الأمازيغ أنموذجا).

ونظرا لعلاقته الوطيدة مع الحكومة الفرنسية والمستشرقين العالميين سهلوا له سنة 1905م انعقاد المؤتمر الرابع عشر للمستشرقين في الجزائر الذي صادف مرور ربع قرن على تأسيس مدرسة الآداب في الجزائر وهي ذكرى لها أكثر من معنى بالنسبة للاستشراق الفرنسي، لأن انشاء مدرسة بالجزائر كان تعبيرا عن انطلاقته الكبرى وأصبح الأداة الفاعلة في ذلك فقد كانت له سمعة بعيدة المدى خلال الخمسة والأربعين سنة التي قضاها في الجزائر كما انه حضر بعض المؤتمرات الإستشراقية قبل ذلك منها مؤتمر كوبنهاغن. كما ان هذا المؤتمر جمع حوالي 500 شخصاً تحت رئاسته وصدرت عنه عدة مجلدات في مختلف الفروع المعرفية بعضها في شكل وثائق ومذكرات. كما نظمت على شرف المؤتمرين عدة فعاليات ونشاطات وجولات منها جولات للتعرف على الاثار الرومانية. وعد هذا المؤتمر نجاحا كبيرا لباسي والاستشراق الفرنسي على العموم. (أبو القاسم سعد الله، ص ص 13، 31-32).

يتضح من خلال الأبحاث التي قام بها ريني باسي أنه من بين المستشرقين الذين ساهموا في وضع أولى القواعد في الدراسات الخاصة باللغة واللهجات الأمازيغية بالجزائر، حتى أنه كان من بين أكثر المساهمين في الرواج لفكرة الاختلاف بين الأمازيغ والعرب، بقصد أو دون قصد. كيف لا وإن مثل هذه الدراسات اعتبرت بالنسبة الفرنسيين من أقوى وأنجع الأدوات التي وضفتها مرار وتكرارا لإشعال نار الفتنة والتفرقة بين فئات المجتمع الجزائري، وكانت بالنسبة لهم أنجع سلاح وضفته في معاركها النفسية ضد الجزائريين، من أجل قطع اللحمة الاجتماعية السائدة بينهم، وفك أواصر الصلة بينهم ، وذلك بقطع كل الروابط التاريخية والاجتماعية والدينية والثقافية والحضارية التي جمعتهم وشكلت قوتهم، وكل هذا من أجل تشتيت صفهم وكسرو وحدتهم، لتحقيق بعدها

بوجمعة فريدة

مأربها ولتحكم قبضتها عليهم دون أن يكدر صفوها أحد الطرفين، ولتكرس سياستها المعهودة فرق تسد.

6. خاتمة.

لقد اهتم المستشرقون الفرنسيين بكل ماله علاقة بهوية الجزائريين، وإرثهم الثقافي والديني. والجدير بالذكر أن أبحاثهم لم تقتصر فقط على فترة تواجدهم بالجزائر، وإنما شملت كل عصورها التاريخية دون استثناء، بما في ذلك الفترة القديمة، فقد اعتبروها امتداد لحضارة أجدادهم الرومانية السابقة، ولهذا فقد لعب العديد من المستشرقين الفرنسيين ومن بينهم ريني بسي، دورا كبيرا في الحركة الاستيطانية الفرنسية بالجزائر بحيث انصب تركيزهم على ضرب الوحدة الوطنية بمشروع فرق تسد، من أجل خلق النعرة بين فئات مجتمعيها، وكسر وحدتهم الوطنية.

أبحاث المستشرق الفرنسي ريني باسي حول تاريخ الجزائر خلال الفترة القديمة.
(تاريخ الأمازيغ أنموذجا).

المصادر والمراجع:

- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، 1830-1954، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، (بيروت 1998).
- بقطاش خديجة، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر، 1830-1871م، دار دحلب، (الجزائر 1977).
- حارش محمد الهادي، دراسات في تاريخ الجزائر، دار هومة، (الجزائر 2013).
- خير الدين الزركلي، الأعلام، ج3، الطبعة 15، دار القلم للملايين، (2002).
- شنيقي محمد البشير، الاحتلال الروماني لبلاد المغرب وسياسة الرومنة 146 ق.م.ق 40 ق.م، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، (الجزائر 1985).
- شنيقي محمد البشير، علم الآثار تاريخه. مناهجه. مفرداته. دار الهدى، عين مليلة، (الجزائر 2013).
- عبد الحميد أعراب، "مخطوطات شمال الصحراء والاستشراق الفرنسي في الجزائر"، المجلة المغاربية للمخطوطات، مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر 2، ع 1، (الجزائر، 2004).
- محمد فاروق النبهان، الاستشراق، تعريفه، مدارسه، آثاره، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو (2012 الرباط).
- محمد قدور تاج، الاستشراق ماهيته، فلسفته ومناهجه، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، (عمان 2014).
- نجيب العقيقي، المستشرقون، ج1، ط5، دار المعارف، مصر (1964 القاهرة).
- يحي مراد أبو عمر، معجم أسماء المستشرقين، د.ط، (2005).
- Albertini (Eugène), Gsell (Stéphane) (1864-1932), Bibliographie des travaux de Stéphane Gsell (avec portrait), in, R.Af,(1932).

بوجمعة فريدة

- Chabot (J-B), Recueil des inscriptions libyques, Imprimerie nationale, tomeII.,(Paris ,1941).
- HALÉVY .J Revue sémitique d'épigraphie d'histoire ancienne, 19 ANNÉE,(paris, 1911), p122.
- Lévi-Provença.E, Réne Basset, in, Hespéris, Archives berbères et Bulletin de l'Institut des hautes études marocaines Volume 4,(Rabat 1924).
- ShawThomas, Voyage dans la régence d'Alger, ou Description géographique, physique, philologique, Traduit de l'anglais, par MacCarthy,(paris1830).